

منهجية السياق ونظريته السياقية "مدخل منهجي لتصحيح المفاهيم الكبرى"

د. طه جابر العلواني

الكلمة الختامية:

1. الإخوة والأخوات، شكر وتقدير/العلماء/الوزير/الأمين العام.

باسم الإخوة الضيوف.

2. وأخيرا ها نحن نصل بعد ثلاثة أيام من العمل، وشهور من الإعداد إلى خاتمة نأمل أن لا تكون نهاية للبحث في هذا المجال، بل بداية له لفتح آفاق جديدة من آفاق القراءة في الخطاب القرآني، والبيان والتطبيق النبوي.

والخطاب القرآني لا تنقضي عجائبه، لا في نظمه ولا في سياقه أو مناسباته.

3. سياق الحال المعاصر أننا نقرأ هذا الكتاب المجيد ونحن نعيش أزمة طاحنة نلتمس ببحثنا في نظمه وخطابه ونصه وعجائبه سبيلا للخروج منها، لأن القرآن المجيد بتلاوة الرسول العظيم، وتعليمه الكتاب والحكمة وتزكيته، وجهادهم به أوجد الأمة، وأنشأها، فهو مصدر التكوين وأس البناء، ومصدر الإحياء، ومنطلق التجديد.

4. إننا نتناول هذا الموضوع القرآني الهام، وأمتنا التي كوّنها الكتاب؛ في حالة تفكك وتشردم وفرقة واستضعاف وذلة لا مزيد عليها. ملتصقين للخلاص من هذه الحالة به سبيلا يرسمه لنا بمنهجه وسياقه ونظمه ومقاصده وكلياته ومحكم آياته.

"القراءة السياقية" قراءة من يلتزم بالكتاب الكوني الذي يهدي للتي هي أقوم منها لإعادة بناء الأمة وإخراجها من أزمتها انطلاقا من منهج التكوين بالقرآن الذي مارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"القراءة السياقية" تنأى بنا عن القراءة وفقا للتصور الكوني الماضوي التاريخاني. كما تنأى بنا عن المنطق اللائكي المنسوب إلى الحداثة أو ما بعد الحداثة في دراسة اللاهوت.

و"القراءة السياقية" قراءة تساعد على الكشف عن السنن الكونية والاجتماعية والقوانين التي تحكم حركة التاريخ والمجتمع والأمم كافة.

و"القراءة السياقية" تساعدنا في الكشف عن الغايات والمقاصد التي رسمها الله تبارك وتعالى لحركة الكون والإنسان والحياة في تفاعل وجدل لا ينقطع حتى تصل البشرية إلى غاية حدّها العليم الخبير.

و"بالقراءة السياقية" نستطيع أن نلتمس سبيلنا لإعادة البناء.

5. لقد استهدفت هذه الندوة "بتقديم موضوع السياق" إعادة تعليم أبناء أمتنا كيفية القراءة الميسرة، والتدبر الحكيم والقراءة التي تتسم بالقدرة على بناء المرونة والحيوية في شخصية الأمة، وتحقيق الفاعلية، والإرادة والعزيمة لإحياء عوامل التجدد والدفع العمراني، وإعادة بناء طاقات الأمة، في إطار يسمح بتحديد العلاقات بوضوح -بين الثابت والمتغير- وهي في الوقت نفسه تعلمنا كيفية التلاوة "حق التلاوة" تلاوة أولئك الذين إذا تلوا آيات الله أو ثلّيت عليهم آياته، زادتهم إيمانا فانطلقوا، ويقينا فنهضوا، وعلى ربهم توكلوا في تصحيح مسار الأنفس، وتقويم بناء العقول، وارتياح الآفاق.

6. لقد آثرتم هذه القضية وتداولتم فيها انطلاقا من نسق ثقافي وإطار حضاري عمراني وكيان اجتماعي قرآني إسلامي صاغ عقولنا، وكوّن نفوسنا وبنى ثقافتنا بشريعة غالبة استطاعت أن تقرض نفسها على أبناء هذا الكيان الاجتماعي حتى حين تغيب، فقد عرفت هذه الشريعة الغراء كيف تحول

"الحرام" إلى "عيب" والواجب الشرعي إلى مطلوب أمّتي. وكثيرا ما يجد الإنسان منا نفسه يقوم بشيء، أو يلاحظ تصرفا فيستحسن ويستقبح دون أن يلتفت إلى المصدر، ولكنه عند البحث يجد المصدر ذلك التشريع العظيم الذي ربط بين الأصل والعقل والنفس ليجعل المطلوب معروفا، والمرفوض منكرا.

7. إننا في دراساتنا كثيرا ما نغفل عن أن آباءنا وأسلافنا قد خاضوا في كل ما خاضوا فيه، ولكن في إطار سيادة المرجعية الإسلامية. ونحن نخوض في كل ما نخوض فيه في ظل سيادة مرجعية مغايرة، لها أصولها وجذورها وسيرورتها وصيرورتها، فليس من العدل أن نحاكم تراثنا إلى هذه المرجعية، ولن يخدم ذلك الموضوعية ولا العلمية.

8. إننا نراجع في تراثنا ونحن في حالة استضعاف وهزيمة حضارية واستعلاء خارجي، تهيمن على نفوسنا مجموعات من المشاعر السلبية التي كثيرا ما تولد -عندنا- شعورا بالدونية بشكل ضاغط على محاولتنا لتحقيق الاستقامة العلمية والموضوعية، مهما حاولنا.

9. ولذلك فنحن أحوج ما نكون إلى دراسات متعمقة جادة وفاحصة في عمليات تكوين الأنساق الثقافية، وتداخلها وتقابلها. وكذلك فيما يتعلق بالأديان وتداخلها وتقابلها وكيف يتم كل منهما.

10. هناك ما تسميه د. منى أبو الفضل -عافاها الله- "جنيولوجيا النخب" أو "أنساب الأفكار" والأشخاص والثقافات وجنيولوجيا النخب مدخل يستطيع أن يتبين الخاص والمشارك والنقدية التي تستطيع أن تحافظ وتوازن بين الخاص والمشارك في المجالات المعرفية.

11. لا بد لنا من بناء مداخلنا النقدية لما نقرأ ولما نأخذ ولما ندع من ثقافات الآخرين ومن تراثنا.

12. إن الحضارة المعاصرة حاولت أن تحقق لنفسها إعجازا يفرض على الآخرين بوفرة المعلومات وكثرتها، وإشاعتها، وجعل الآخرين عاجزين ومشلولين أمام كثرتها وهيمنتها، وتشعبها، ويسر سهولة الوصول إليها، والقدرة على نسبة كل إنجاز لها.

ولذلك فلا بد من التدرّج بالقدرة على القراءات المعرفية والمنهجية التي تكشف عن الغايات والمقاصد والنماذج والمناهج وتمكن من معرفة مناطق التقابل والتداخل، خاصة حين يكون التداخل المطلوب والتقابل بين شقين مختلفين أحدهما مفتوح والآخر مغلق واقف عند مضائق النهايات.

13. اتفقت كلمة الأمة منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن القرآن يفسر بعضه بعضا، وعلى أنه أفضل تفسير للقرآن هو ذلك النوع من التفسير...